فى صحراء الأقدار

الأقدار العاتية ، هائجة مائجة ، تهبّ على رجل فى الحلقة السادسة يحمل حياته على كتفين هزيلتين ، قد برت الأيام ما كساهما من قوة الاحتمال . والحياة على كتفيه قلقة متفززة ، يخب بها تارة ويضع تارة ، ويترجح من وقرها إلى أمام ووراء . والأقدار تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ، وتميل به فى صحرائها كل مميل ، وتهيله على حسكها كل مهيل ، وتلطمه اللطمة تلو اللطمة وتكيل . حتى إذا لاحت فى تلك الصحراء الهائلة واحة — والأقدار تترفق بالواحات ، وتدفع إليها فى الشدائد والملمات — كان الرجل قد تخاذلت قدماه ، فبدا له أن يضع العبء على الأرض ويتأمل الحياة .

إنه يجدها شوهاء نكراء ، لا منفذ فيها لرجاء ، اللهم إلا تانك العينان اللتان تكران فيها إلى الوراء ، وتانك العدستان التى تقربان منها البعيد .

ويقبل عليها يطل من عينيها على الماضى ، ومن عدستيها على الذكرى وهى من ورائهما فسيحة الأرجاء ، طليقة الرحاب ، قد أسدل فيها ستار على كل باب ، وعهد الزمن إلى أبنائه بتلك الأبواب . ويزيح له الصبا ستاراً من تلك الأستار ، فإذا طفل على صورته فى الثالثة من عمره ، تحمله امرأة ليست بأمه ، ونحوها مأتم قائم ، وعويل صاخب دائم . ويكتنف الطفل الغموض فلا يدرى على التحقيق ما يداخل الطفل من مأتم أبيه ؛ فقد تركه فى الثانية من عمره ، وكان اليوم تمام العام على موته .

ويرى الطفل بعد ذلك فى كنف أمه ترعاه ، وتحت سلطان الأكبر من إخوته يهمله ؛ الأم تضربه لتؤدبه ، والأخ يضربه ليعذبه . الأم تدخر له لتعلمه ، والأخ يبدد ما تدخره له . والطفل فى تلك الأثناء ينمو على صورة ما ؛ إذا جاء أمه باكياً من عبث الصغار انتهرته ، فتعلم ألا يبكى من العبث ، وإذا

قصد إلى أخيه ليقضى له أمراً ، منعه إياه ، وألحق به أذاه ؛ فتعلّم كبت الشهوات ورياضة النفس على الحرمان .

ويتأمل الرجل من عدستى الحياة ويطيل التأمل وقد أهمته سيرة الصبى ، فيجده يخدم أخاه الأكبر على المائدة ولا يؤاكله ، وأخوه الأكبر يتزود من الأطايب بالنصيب الأوفر ، ويدع لأخويه الصغيرين والأم النصيب الأصغر . وتقطع الأم ولديها نصيبها القليل ، فيعتاد الطفل الرضا بالقليل ، وألا يطمع فى غير عطف الأم وهو جد كثير .

ويرى الطفل ذاهباً إلى المدرسة خالى الجيب ، ليس فيه مما يشتهى الأطفال قليل أو كثير . ويعود الطفل من المدرسة فيلزمه أخوه البيت بحجة المذاكرة ، فينشأ قعيد البيت ، أليف ما يتردد عليه ، قريباً من بنات الجيران ، حبيبات إليه .

ويروع المتأمل أن يرى طفله يعرج فى ساحة الذكرى على منعطف الأوزار ، فيقف بالغريزة وهو بعد صبى فى العاشرة ، وهى امرأة قوية شديدة البأس . ويراها تداعبه وتحتضنه ، وتلقى به إلى بناتها يتلقفنه وهن بعد غرار ، فيعبثن به ويعبث بهن وهن وراء الأستار . وتدعوه إحداهن فيستجيب لها ، وتغريه كبراهن فيسىء الاختيار ، وينصرف عن المذاكرة إلى المعابثة ، ويحسن من الدرس علم الكلام ، ويرهف من الحس عاطفة الهيام .

ويتابعه المتأمل فى الثانية عشرة إلى المدرسة ، فيلفيه المختار بين الصغار ، والمتحدث الذى لا يشق له غبار . ويقدم إلى الشخصيات العظيمة ليلقى كلمة الترحاب ، ويقف فى مواقف الكلام ملء الإهاب .

فيغتبط المتأمل بمرأى طفله ومشهد ماضيه ، ويرتد عن عدسة الحياة إلى تأمل الحياة ، فيجدها هذه المرة باسمة ، ويجد ما كان تشوه منها قد برئ من العيوب والأسقام ، ويجد الرجاء يطل من عينيها وفى يده خيط يربط ماضى الغلام فى الثانية عشرة بحاضر الرجل فى الخمسين ؛ فيحتملها عن الأرض يكاد لا يحس لها وزناً ، ويضعها على كتفيه لا تحسان لها وقراً . ويسير منتصب القامة والحياة أمامه ووراءه ، وعن يمينه وعن شماله ، مرحة ضاحكة ، لاهية لاعبة . ويبلغ الواحة والأقدار ساهية ، ويدخلها والآمال فيها حوض من زهر يسقى من كوثر ، فيطيب له الجلوس على حافة الحوض الأزهر ، وتتقلب حياته فراشاً زاهياً يتنقل بين هذه الأزهار ، ويتغذى بآمالها الكبار والصغار . ويفيض الشعر من حوله

جدولا منساباً، وغديراً وثاباً؛ وتنسجم مشاعره فهي رائحة غادية، مختالة متهادية. وينفسح خياله ليتلقى العرائس الهابطة السابحة، والحياة تضم هذا كله ولا تفلته، وتلمه ولا تشتته.

ويتعب الخيال من كثرة ما جاب في واحته فينام، ويرى الحقيقة في منامه فيحاول اللياذ بالفرار، فهي عدوته من قديم الزمان، ولها عليه سلطان، يغمره آناً وينحسر في أكثر الأحيان. فتعاجله الحقيقة بوخزة من إبرتها فتهبط فقاعته، وتركد حركته، ويزول سلطان الخيال عن الرجل الجوال، الساكن إلى نعمى الآمال. وتقص الحقيقة ذلك الخيط الذي ربط به الرجاء ماضي الغلام بحاضر الرجل، ويتحول الفراش الخفيف إلى هولة ثقيلة ينوء بها كاهله، ويحس نشوب أظفارها في تينك الكتفين اللتين عاودهما الهزال، وعاودت عليهما الحياة الربوض والإثقال.

ويرتد الرجل إلى صحراء الأقدار تتنكر له من جديد، وتصطف أمامه الهموم للهجوم، وتضرب حوله نطاقا من نار وحديد. إنه يعود إلى دنيا الحقيقة: دنيا الحنظل والأشواك. ويحس حياته فوق كتفيه مرهقة مرهَقة. ويتمثل له العمل الذي يزاوله يصطدم فيه بعقد النفس ومركبات النقص، وينغص عليه العيش. وعمله بين هذه الهموم يزامله فيه أصدقاء شر من الخصوم، همهم الكيد له في الصميم: كلهم يبسم له، وكلهم يسقيه في ابتسامته شراباً من حميم. يعلم سبلهم ويعفّ عن انتهاجها، ويرى مكرهم ويأبى أن يمكر بهم.

ويتبين بين الهموم هما يحاول أن يخرج عن الصف ويشب عن الطوق ليخنقه: هو تلك الطفلة التي رباها صغيرة ورعاها كبيرة، وكانت أنسه وغبطته. تلك التي أبقت عليه شبابه، فلما فارقته أحس دبيب الكهولة يسرى في عظامه، والأرق يقتحم عليه كل ليلة منامه، والذكرى تطغى عليه فتثير آلامه. يراها بعين القلب حين يأوى إلى فراشه، فتشتد لوعته، ويفيض حنينه، ويظل الساعات يتقلب على جنبيه والنار تلهب جوانحه. وتكوى ضلوعه. وقد يظل الليل بطوله على هذه الحال، فاذا نهض من نومه تمثلها بعين الخيال، فتظل الساعات في البيت وفي الطريق وفي المكتب، ثم في البيت ثانية نصب عينه، ومرمى فكره، وشغله الشاغل. فهي سهومه ووجومه، وهي يأسه القاتل، بعد أن باتت أمله الزائل.

وبين الهموم هم يحاول ألا ينخرط فى هذا السلك ، وأن يشيع فى الظلماء النور ، وفى الدهماء الحبور . إنها امرأته التى تزوجها صغيرة دون العشرين ، غريرة لم تبلغ الرشد ، نحيلة عليلة ، هادئة قانعة ، لا تكلفه ما لا يطيق ، وتحتمله وقت الضيق .

كانت دون ما يطلب وفوق ما يستحق . لم يدر حين تزوجها أيحبها أم لا يكترث بها ، أتسعده أم يشقى بها . وما يزال بعد عمر طويل يسأل نفسه هذا السؤال ، ولا يدرى ما المآل .

تخلص له ، وتتعهد حاجاته . وتماشى رغباته ، وتضحى فى ذلك بالكثير من راحتها ، وتذلل العصىّ من مشيئتها ، وتهيئ له من أسباب الهناء ما هو خليق أن يهنئه ، فلا يهنئه .

رزقها الله منه ببنت شد ما اشتاقت أن تعززها بولد ، فشاءت الأقدار أن تحرمها البنت ، وتحبس عنها الولد . ولم يعزّها أنه يذكر من ماتت ويبكيها ، ويعزف عن كل من لعله يعوضه منها فينساها .

ترفع فى بيته مشعلا من الإخلاص تعصف به الأيام بين الحين والحين ، فتذبذب شعلته فلا تستقيم . لكن شيئاً لم يستطع أن يطفئه رغم ما عمل على إطفائه ، ولم ينفع هبوب الأقدار عليه إلا فى اتساع شعلته وانتشار ضيائه .

وبين الهموم ما يخطف على خاطره كالبرق فلا يضيئه ، بل يسدد سهمه إلى فكره فيدميه ويشيع الاضطراب فيه . فهذه حاشية تعرض له فى حاضره كما يعرض الشريط : هذا أخ ينهش فى لحمه فيجرّحه ، وهذا صديق يأخذ من ماله ووفائه فينكر كليهما : المال والصديق . وهذه أخت حنا عليها ، وصان أصغريها ، ولم يدع مناسبة إلا سعى إليها ، وتذكر أعيادها فأهدى إليها الهدايا ، وأعرست وأنجبت فأجزل لها العطايا ، وأساء وأساءت فما أسر لها حفيظة ؛ حتى رآها تتغير ، وبدا عليه أنه تغير وما تغيَّر ، فما هى إلا أن تصطدم مصلحة لها حقيرة ، بمصلحة له جليلة ، حتى تنقلب أفعى تلدغ ، ونَمِرة تنهش ، وحتى يمتد لسانها عليه ، فلا ينقطع من الخجل قبل وصوله إليه ، فيبهت كالذى كفر وما كفر ، ولكن كفرت وما بُهتت .

ونفسه التى بين جنبيه أشد همومه ، فهو محبوب مكروه : يحبه من يحبه ويسرف فى حبه ، ويكرهه من يكرهه فيسرف فى كرهه . لا يعرف مبغضوه ألاّ

يكترثوا له ، ويعرف هو دائماً ألا يكترث لهم . لا يمس إحساس أحد ، ويغضى عن كثير ، ولا يتعهد علاقة ، ولا يقطعها بيده ، ويحيط نفسه بسياج من التحفظ لا يقرّب أحداً منه ، ويرفع أحياناً ستار التحفظ فيعلقه من يقربه ، ثم لا يلبث حين يسدل الستار أن يفلته . يعيش مع نفسه لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويحفظ غيبة الناس ، والناس لاتحفظ غيبته . يتكدر ويصفو ، فلا يحتفظ بعد الصفو براسب الكدر ، ويبدو له الغل والسخيمة فلا تفوزان منه بغير الهذر ، ويفطن إلى السيئة الخفية فيثور ثورة القدر . رقيق الحاشية ، شديد التهذيب ، لا يلقى مع ذلك إقبالا ، دقيق شديد التدقيق ، لا يشجع اتصالا .

مايزال الرجل في صحراء الأقدار يخب فيها ويضع ، ويترجح إلى أمام ووراء . وما تزال تلك الهولة المهولة المسماة بالحياة رابضة فوق كتفيه ، يهولها تربص الهموم فتزداد تشبثاً بالكاهل ، ويزداد ضغطها عليه . لكن الرجل يسمع من بعيد وقع عكاز ، فيلتفت فيرى عجوزاً تدب . إن بينه وبينها شقة ما تزال بعيدة ، وهذه العجوز من دأبها أن تسير ببطء ، لكنها هذه المرة تغذ السير وتحجل كالغراب . إنها تحاول أن تدركه لتزامل الحياة على كتفيه ، وقد تنتظر الحياة حتى تدركها الشيخوخة ، وقد تخطفها الهموم قبل الأوان .

لقد زهدت الإقامة فوق كتفي الرجل على كل حال ، وقد لا يطول المقام بها فوق ما طال ، فالحياة لا بد مفارقة .

محمود ا. الدسوقي